{سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱ الى ۸}

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱) وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۲) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (۳) ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (۴)

ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵) النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (۶) وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۷) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (۸)

(بيان)

تتضمن السورة تفاريق من المعارف و الأحكام و القصص و العبر و المواعظ و فيها قصة غزوة الخندق و إشارة إلى قصة بنى القريظة من اليهود، و سياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينة.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً» أمر للنبى ص بتقوى الله و فيه تمهيد للنهى الذى بعده «وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ.«

و فى سياق النهى- و قد جمع فيه بين الكافرين و المنافقين و نهى عن إطاعتهم- كشف عن أن الكافرين كانوا يسألونه أمرا لا يرتضيه الله سبحانه و كان المنافقون يؤيدونهم فى مسألتهم و يلحون، أمرا كان الله سبحانه بعلمه و حكمته قد قضى بخلافه و قد نزل الوحى الإلهى بخلافه، أمرا خطيرا لا يؤمن مساعدة الأسباب على خلافه إلا أن يشاء الله فحذر النبى ص عن إجابتهم إلى ملتمسهم و أمر بمتابعة ما أوحى الله إليه و التوكل عليه.

و بهذا يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن عدة من صناديد قريش بعد وقعة أحد دخلوا المدينة بأمان من النبى ص و سألوا النبى ص أن يتركهم و آلهتهم فيتركوه و إلهه فنزلت الآيات و لم يجبهم النبى إلى ذلك و سيأتى فى البحث الروائى التالى.

و بما تقدم ظهر وجه تذييل الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً» و كذا تعقيب الآية بالآيتين بعدها.

قوله تعالى: «وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً» الآية عامة فى حد نفسها لكنها من حيث وقوعها فى سياق النهى تأمر النبى ص باتباع ما نزل به الوحى فيما يسأله الكافرون و المنافقون و أتباعه إجراؤه عملا بدليل قوله: «إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً.«

قوله تعالى: «وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا» الآية كالآية السابقة فى أنها عامة فى حد نفسها، لكنها لوقوعها فى سياق النهى السابق تدل على الأمر بالتوكل على الله فيما يأمره به الوحى و تشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر إلى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضة المخافة و الاضطراب إلا التوكل على الله سبحانه فإنه السبب الوحيد الذى لا يغلبه سبب مخالف.

قوله تعالى: «ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين فى الاعتقاد فإن القلب الواحد أى النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متنافيين و رأيين متناقضين فإن كان هناک متنافيان فهما لقلبين و ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين و يصدق بالمتناقضين و قوله: «فِي جَوْفِهِ» يفيد زيادة التقرير كقوله: «وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»: الحج: ۴۶.

قيل: الجملة توطئة و تمهيد كالتعليل لما يتلوها من إلغاء أمر الظهار و التبنى فإن فى الظهار جعل الزوجة بمنزلة الأم و فى التبنى و الدعاء جعل ولد الغير ولدا لنفسه و الجمع بين الزوجية و الأمومة و كذا الجمع بين بنوة الغير و بنوة نفسه جمع بين المتنافيين و لا يجتمعان إلا فى قلبين و ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه.

و لا يبعد أن تكون الجملة فى مقام التعليل لقوله السابق: «لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ» «وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ» فإن طاعة الله و ولايته و طاعة الكفار و المنافقين و ولايتهم متنافيتان متباينتان كالتوحيد و الشرک لا يجتمعان فى القلب الواحد و ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه.

قوله تعالى: «وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ» كان الرجل فى الجاهلية يقول لزوجته أنت منى كظهر أمى أو ظهرک على كظهر أمى فيشبه ظهرها بظهر أمه و كان يسمى ذلک ظهارا و يعد طلاقا لها، و قد ألغاه الإسلام.

فمفاد الآية أن الله لم يجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن بقول ظهرک على كظهر أمى أمهات لكم و إذ لم يجعل ذلک فلا أثر لهذا القول و الجعل تشريعى.

قوله تعالى: «وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ» الأدعياء جمع دعى و هو المتخذ ولدا المدعو ابنا و قد كان الدعاء و التبنى دائرا بينهم فى الجاهلية و كذا بين الأمم الراقية يومئذ كالروم و فارس و كانوا يرتبون على الدعى أحكام الولد الصلبى من التوارث و حرمة الازدواج و غيرهما و قد ألغاه الإسلام.

فمفاد الآية أن الله لم يجعل الذين تدعونهم لأنفسكم أبناء لكم بحيث يجرى فيهم ما يجرى فى الأبناء الصلبيين.

قوله تعالى: «ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» الإشارة بقوله: «ذٰلِكُمْ» إلى ما تقدم من الظهار و الدعاء أو إلى الدعاء فقط و هو الأظهر و يؤيده اختصاص الآية التالية بحكم الدعاء فحسب.

و قوله: «قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ» أى إن نسبة الدعى إلى أنفسكم ليس إلا قولا تقولونه بأفواهكم ليس له أثر وراء ذلك فهو كناية عن انتفاء الأثر كما فى قوله: «كَلّٰا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها»: المؤمنون: ١٠٠.

و قوله: «وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» معنى كون قوله: هو الحق أنه إن أخبر عن شىء كان الواقع مطابقا لما أخبر به و إن أنشأ حكما ترتب عليه آثاره و طابقته المصلحة الواقعية.

و معنى هدايته السبيل أنه يحمل من هداه على سبيل الحق التى فيها الخير و السعادة و فى الجملتين تلويح إلى أن دعوا أقوالكم و خذوا بقوله.

قوله تعالى: «ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ» إلى آخر الآية. اللام فى «لِآبائِهِمْ» للاختصاص أى ادعوهم و هم مخصوصون بآبائهم أى انسبوهم إلى آبائهم و قوله:

» هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ»، الضمير إلى المصدر المفهوم من قوله: «ادْعُوهُمْ» نظير قوله:

» اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ» و «أقسط» صيغة تفضيل من القسط بمعنى العدل.

و المعنى: انسبوهم إلى آبائهم- إذا دعوتموهم- لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند الله.

و قوله: «فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ»، المراد بعدم علمهم آباءهم عدم معرفتهم بأعيانهم، و الموالى هم الأولياء، و المعنى: و إن لم تعرفوا آباءهم فلا تنسبوهم إلى غير آبائهم بل ادعوهم بالإخوة و الولاية الدينية.

و قوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لٰكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ» أى لا ذنب لكم فى الذى أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتموهم لغير آبائهم و لكن الذى تعمدته قلوبكم ذنب أو و لكن تعمد قلوبكم بذلك فيه الذنب.

و قوله: «وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» راجع إلى ما أخطئ به.

قوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ» أنفس المؤمنين هم المؤمنون فمعنى كون النبى أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم: و معنى الأولوية هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه و بين ما هو أولى منه فالمحصل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ و الكلاءة و المحبة و الكرامة و استجابة الدعوة و إنفاذ الإرادة فالنبى أولى بذلك من نفسه و لو دار الأمر بين النبى و بين نفسه فى شىء من ذلك كان جانب النبى أرجح من جانب نفسه.

ففيما إذا توجه شىء من المخاطر إلى نفس النبى فليقه المؤمن بنفسه و يفده نفسه و ليكن النبى أحب إليه من نفسه و أكرم عنده من نفسه و لو دعته نفسه إلى شىء و النبى إلى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئا و أراد النبى خلافه كان المتعين استجابة النبى ص و طاعته و تقديمه على نفسه.

و كذا النبى ص أولى بهم فيما يتعلق بالأمور الدنيوية أو الدينية كل ذلك لمكان الإطلاق فى قوله: «النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.«

و من هنا يظهر ضعف ما قيل: إن المراد أنه أولى بهم فى الدعوة فإذا دعاهم إلى شىء و دعتهم أنفسهم إلى خلافه كان عليهم أن يطيعوه و يعصوا أنفسهم، فتكون الآية فى معنى قوله: «وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ»: النساء: ۵۹ و قوله: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ»: النساء: ۶۴ و ما أشبه ذلک من الآيات و هو مدفوع بالإطلاق.

و كذا ما قيل إن المراد أن حكمه فيهم أنفذ من حكم بعضهم على بعض كما فى قوله:

» فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ»: النور: ۶۱ و يئول إلى أن ولايته على المؤمنين فوق ولاية بعضهم على بعض المدلول عليه بقوله: «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ»: براءة:- ۷۱.

و فيه أن السياق لا يساعد عليه و قوله: «وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ» جعل تشريعى أى أنهن منهم بمنزلة أمهاتهم فى وجوب تعظيمهن و حرمة نكاحهن بعد النبى ص كما سيأتى التصريح به فى قوله:

» وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً.«

فالتنزيل إنما هو فى بعض آثار الأمومة لا فى جميع الآثار كالتوارث بينهن و بين المؤمنين و النظر فى وجوههن كالأمهات و حرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم و كصيرورة آبائهن و أمهاتهن أجدادا و جدات و إخوتهن و أخواتهن أخوالا و خالات للمؤمنين.

قوله تعالى: «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ» إلخ، الأرحام جمع رحم و هى العضو الذى يحمل النطفة حتى تصير جنينا فيتولد، و إذ كانت القرابة النسبية لازمة الانتهاء إلى رحم واحدة عبر عن القرابة بالرحم فسمى ذوو القرابة أولى الأرحام.

و المراد بكون أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، الأولوية فى التوارث، و قوله:

» فِي كِتابِ اللَّهِ» المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة، و قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ» مفضل عليه و المراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم، و المعنى: و ذوو القرابة بعضهم أولى ببعض من المهاجرين و سائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالمؤاخاة الدينية، و هذه الأولوية فى كتاب الله و ربما احتمل كون قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ» بيانا لقوله: «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ.«

و الآية ناسخة لما كان فى صدر الإسلام من التوارث بالهجرة و الموالاة فى الدين.

و قوله: «إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً» الاستثناء منقطع، و المراد بفعل المعروف إلى الأولياء الوصية لهم بشىء من التركة، و قد حد شرعا بثلث المال فما دونه، و قوله:

«كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً» أى حكم فعل المعروف بالوصية مسطور فى اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة.

قوله تعالى: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً» إضافة الميثاق إلى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوة مشعر بذلک فالميثاق المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبيون و هو غير الميثاق المأخوذ من عامة البشر الذى يشير إليه فى قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى»: الأعراف: ۱۷۲.

و قد ذکر أخذ الميثاق من النبيين فى موضع آخر و هو قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا»: آل عمران: ۸۱.

و الآية المبحوث عنها و إن لم تبين ما هو الميثاق المأخوذ منهم و إن كانت فيها إشارة إلى أنه أمر متعلق بالنبوة لكن يمكن أن يستفاد من آية آل عمران أن الميثاق مأخوذ على وحدة الكلمة فى الدين و عدم الاختلاف فيه كما فى قوله: «إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ»: الأنبياء: ۹۲ و قوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْکَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»: الشورى: ۱۳.

و قد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمى خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال: «وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» و معنى العطف إخراجهم من بينهم و تخصيصهم بالذكر كأنه قيل: و إذ أخذنا الميثاق منكم أيها الخمسة و من باقى النبيين.

و لم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلا لعظمة شأنهم و رفعة مكانهم فإنهم أولوا عزم و أصحاب شرائع و كتب و قد عدهم على ترتيب زمانهم: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم ع، لكن قدم ذكر النبى ص و هو آخرهم زمانا لفضله و شرفه و تقدمه على الجميع.

و قوله: «وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً» تأكيد و تغليظ للميثاق نظير قوله: «وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ»: هود: ۵۸.

قوله تعالى: «لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً» اللام فى «لِيَسْئَلَ» للتعليل أو للغاية و هو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله: «وَ إِذْ أَخَذْنا» و قوله: «وَ أَعَدَّ» معطوف على ذلک المحذوف، و التقدير فعل ذلک أى أخذ الميثاق ليتمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم و أعد للكافرين عذابا أليما.

و لم يقل: و ليعد للكافرين عذابا، إشارة أن عذابهم ليس من العلل الغائية لأخذ الميثاق و إنما النقص من ناحيتهم و الخلف من قبلهم.

و أما سؤال الصادقين عن صدقهم فقيل: المراد بالصادقين الأنبياء و سؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أممهم و كأنه مأخوذ من قوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ»: المائدة: ١٠٩.

و قيل: المراد سؤال الصادقين فى توحيد الله و عدله و الشرائع عن صدقهم أى عما كانوا يقولون فيه، و قيل: المراد سؤال الصادقين فى أقوالهم عن صدقهم فى أفعالهم، و قيل: المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أ هو وجه الله أو غيره؟ إلى غير ذلك من الوجوه و هى كما ترى.

و التأمل فيما يفيده قوله: «لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ» يرشد إلى خلاف ما ذكروه، ففرق بين قولنا: سألت الغنى عن غناه و سألت العالم عن علمه، و بين قولنا:

سألت زيدا عن ماله أو عن علمه، فالمتبادر من الأولين أنى طالبته أن يظهر غناه و أن يظهر علمه، و من الأخيرين أنى طالبته أن يخبرنى هل له مال أو هل له علم؟ أو يصف لى ما له من المال أو من العلم.

و على هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما فى باطنهم من الصدق فى مرتبة القول و الفعل و هو عملهم الصالح فى الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق إليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن فى نفوسهم و هذا فى الدنيا لا فى الآخرة فأخذ الميثاق فى نشأة أخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الذر «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى» الآيات.

و بالجملة الآيتان من الآيات المنبئة عن عالم الذر المأخوذ فيه الميثاق و تذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء ع و ترتب شأنهم و عملهم فى الدنيا على ذلك فى ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه.

و لمكان هذا التعميم ذكر عاقبة أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين و الكلام فى الميثاق المأخوذ منهم فكأنه قيل: أخذنا ميثاقا غليظا من النبيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبلغونه ليسأل الصادقين و يطالبهم بالتكليف و الهداية إظهار صدقهم فى الاعتقاد و العمل ففعلوا فقدر لهم الثواب و أعد للكافرين عذابا أليما.

و من هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة فى قوله: «لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ» إلخ، و ذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له و إن كان أخذه منه تعالى بوساطة من الملائكة المصحح لقوله: «أَخَذْنا» «وَ أَخَذْنا» فالمطالب لصدق الصادقين و المعد لعذاب الكافرين بالحقيقة هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ٢٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١) وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣)

وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨)

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَ تَسْلِيماً (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (٢٥) وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧)

(بيان)

قصة غزوة الخندق و ما عقبها من أمر بنى قريظة و وجه اتصالها بما قبلها ما فيها من ذكر حفظ العهد و نقضه.

الميزان فى تفسير القرآن، ج١۶، ص: ٢٨۵

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ» إلخ، تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم و صرف جنود المشركين عنهم و قد كانوا جنودا مجندة من شعوب و قبائل شتى كغطفان و قريش و

الأحابيش و كنانة و يهود بنى قريظة و النضير أحاطوا بهم من فوقهم و من أسفل منهم فسلط الله عليهم الريح و أنزل ملائكة يخذلونهم.

و هو قوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ» ظرف للنعمة أو لثبوتها «جاءَتْكُمْ جُنُودٌ» من طوائف كل واحدة منهم جند كغطفان و قريش و غيرهما «فَأَرْسَلْنا» بيان للنعمة و هو الإرسال المتفرع على مجيئهم «عَلَيْهِمْ رِيحاً» و هى الصبا و كانت باردة فى ليال شاتية «وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها» و هى الملائكة لخذلان المشركين «وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً».

قوله تعالى: «إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» إلخ الجاءون من فوقهم و هو الجانب الشرقى للمدينة غطفان و يهود بنى قريظة و بنى النضير و الجاءون من أسفل منهم و هو الجانب الغربى لها قريش و من انضم إليهم من الأحابيش و كنانة فقوله: «إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» عطف بيان لقوله: «إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ».

و قوله: «إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ»، عطف بيان آخر لقوله:

«إِذْ جاءَتْكُمْ» إلخ، و زيغ الأبصار ميلها و القلوب هى الأنفس و الحناجر جمع حنجر و هو جوف الحلقوم.

و الوصفان أعنى زيغ الأبصار و بلوغ القلوب الحناجر كنايتان عن كمال غشيان الخوف لهم حتى حولهم إلى حال المحتضر الذى يزيغ بصره و تبلغ روحه الحلقوم.

و قوله: «وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» أى يظن المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول: إن الكفار سيغلبون و يستولون على المدينة، و بعضهم يقول:

إن الإسلام سينمحق و الدين سيضيع، و بعضهم يقول: إن الجاهلية ستعود كما كانت، و بعضهم يقول: إن الله غرهم و رسوله إلى غير ذلک من الظنون.

قوله تعالى: «هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً» هنالک إشارة بعيدة إلى زمان أو مكان و المراد الإشارة إلى زمان مجيء الجنود و كان شديدا عليهم لغاية بعيدة، و الابتلاء الامتحان، و الزلزلة و الزلزال الاضطراب، و الشدة القوة و تختلفان فى أن الغالب على الشدة أن تكون محسوسا بخلاف القوة، قيل: و لذلک يطلق القوى عليه تعالى دون الشديد.

و المعنى فى ذلک الزمان الشديد امتحن المؤمنون و اضطربوا خوفا اضطرابا شديدا.

قوله تعالى: «وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً» الذين فى قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان من المؤمنين و هم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر، و إنما سمى المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام.

و الغرور حمل الإنسان على الشر بإراءته فى صورة الخير و الاغترار احتماله له.

قال الراغب: يقال: غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أريد، و الغرة- بكسر الغين- غفلة فى اليقظة. انتهى.

و الوعد الذى يعدونه غرورا من الله و رسوله لهم بقرينة المقام هو وعد الفتح و ظهور الإسلام على الدين كله و قد تكرر فى كلامه تعالى كما ورد أن المنافقين قالوا:

يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى و قيصر و نحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء.

قوله تعالى: «وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا» يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينة الرسول بعد الهجرة ثم المدينة، و المقام بضم الميم الإقامة، و قولهم: لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا أى لا وجه لإقامتكم هاهنا قبال جنود المشركين فالغلبة لهم لا محالة فارجعوا ثم أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال عاطفا على قوله: قالت طائفة: «وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ» أى من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض «النَّبِيَّ» فى الرجوع «يَقُولُونَ» استئذانا «إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ» أى فيها خلل لا يأمن صاحبها دخول السارق و زحف العدو «وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ» أى ما يريدون بقولهم هذا «إِلَّا فِراراً».

قوله تعالى: «وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً» ضمائر الجمع للمنافقين و المرضى القلوب و الضمير فى «دُخِلَتْ» للبيوت و معنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولا عليهم، و الأقطار جمع قطر و هو الجانب، و المراد بالفتنة بقرينة المقام الردة و الرجعة من الدين و المراد بسؤالها

طلبها منهم، و التلبث التأخر.

و المعنى: و لو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها و هم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم مسئولهم و ما تأخروا بالردة إلا يسيرا من الزمان بمقدار الطلب و السؤال أى إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشدة و البأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا» اللام للقسم، و قوله: «لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ» أى لا يفرون عن القتال و هو بيان للعهد و لعل المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان بالله و رسوله و ما جاء به رسوله و مما جاء به: الجهاد الذى يحرم الفرار فيه و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: «قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا» إذ لا بد لكل نفس من الموت لأجل مقضى محتوم لا يتأخر عنه ساعة و لا يتقدم عليه فالفرار لا يؤثر فى تأخير الأجل شيئا.

و قوله: «وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا» أى و إن نفعكم الفرار فمتعتم بتأخر الأجل فرضا لا يكون ذلک التمتيع إلا تمتيعا قليلا أو فى زمان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محالة.

قوله تعالى: «قُلْ مَنْ ذَا الَّذِی یَعْصِمُکُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِکُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِکُمْ رَحْمَةً وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً» کانت الآیة السابقة تنبیها لهم على أن حیاة الإنسان مقضی مؤجل لا ینفع معه فرار من الزحف و فی هذه الآیة تنبیه- على أن الشر و الخیر تابعان لإرادة الله محضا لا یمنع عن نفوذها سبب من الأسباب و لا یعصم الإنسان منها أحد فالحزم إیکال الأمر إلى إرادته تعالى و القرار على أمره بالتوکل علیه.

و لما کانت قلوبهم مرضى أو مشغولة بکفر مستبطن عدل عن أمر النبی ص بتکلیمهم إلى تکلیم نفسه فقال: «وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً».

قوله تعالى: «قَدْ یَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِینَ مِنْکُمْ- إلى قوله- یَسِیراً» التعویق التثبیط و الصرف، و هلم اسم فعل بمعنى أقبل، و لا یثنى و لا یجمع فی لغة الحجاز، و البأس الشدة و الحرب، و أشحة جمع شحیح بمعنى البخیل، و الذی یغشى علیه هو الذی أخذته الغشوة فغابت حواسه و أخذت عیناه تدوران، و السلق بالفتح فالسکون الضرب و الطعن.

و معنى الآیتین: إن الله لیعلم الذین یثبطون منکم الناس و یصرفونهم عن القتال و هم المنافقون و یعلم الذین یقولون من المنافقین لإخوانهم من المنافقین أو ضعفة الإیمان تعالوا و أقبلوا و لا یحضرون الحرب إلا قلیلا بخلاء علیکم بنفوسهم. فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ینظرون إلیک من الخوف نظرا لا إرادة لهم فیه و لا استقرار فیه لأعینهم تدور أعینهم کالمغشى علیه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوکم و طعنوکم بألسنة حداد قاطعة حال کونهم بخلاء على الخیر الذی نلتموه.

أولئک لم یؤمنوا و لم یستقر الإیمان فی قلوبهم و إن أظهروه فی ألسنتهم فأبطل الله أعمالهم و أحبطها و کان ذلک على الله یسیرا.

قوله تعالى: «یَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ یَذْهَبُوا» إلى آخر الآیة، أی یظنون من شدة الخوف أن الأحزاب- و هم جنود المشرکین المتحزبون على النبی ص- لم یذهبوا بعد «وَ إِنْ یَأْتِ الْأَحْزابُ» مرة ثانیة بعد ذهابهم و ترکهم المدینة «یَوَدُّوا» و یحبوا «أَنَّهُمْ بادُونَ» أی خارجون من المدینة إلى البدو «فِی الْأَعْرابِ یَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِکُمْ» و أخبارکم «وَ لَوْ کانُوا فِیکُمْ» و لم یخرجوا منها بادین «ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِیلًا» أی و لا کثیر فائدة فی لزومهم إیاکم و کونهم معکم فإنهم لن یقاتلوا إلا قلیلا لا یعتد به.

قوله تعالى: «لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کانَ یَرْجُوا اللَّهَ وَ الْیَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَکَرَ اللَّهَ کَثِیراً» الأسوة القدوة و هی الاقتداء و الاتباع، و قوله: «فِی رَسُولِ اللَّهِ» أی فی مورد رسول الله و الأسوة التی فی مورده هی تأسیهم به و اتباعهم له و التعبیر بقوله: «لَقَدْ کانَ لَکُمْ» الدال على الاستقرار و الاستمرار فی الماضی إشارة إلى کونه تکلیفا ثابتا مستمرا.

و المعنى: و من حكم رسالة الرسول و إيمانكم به أن تتأسوا به فى قوله و فعله و أنتم ترون ما يقاسيه فى جنب الله و حضوره فى القتال و جهاده فى الله حق جهاده.

و فى الكشاف:، فإن قلت: فما حقيقة قوله: «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»؟ و قرئ أسوة بالضم. قلت: فيه وجهان: أحدهما أنه فى نفسه أسوة حسنة أى قدوة و هو المؤتسى أى المقتدى به كما تقول: فى البيضة عشرون منا حديد أى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد. و الثانى: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها و تتبع و هى المواساة بنفسه انتهى و أول الوجهين قريب مما قدمناه.

و قوله: «لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» بدل من ضمير الخطاب فى «لَكُمْ» للدلالة على أن التأسى برسول الله ص خصلة جميلة زاكية لا يتصف بها كل من تسمى بالإيمان، و إنما يتصف بها جمع ممن تلبس بحقيقة الإيمان فكان يرجو الله و اليوم الآخر أى تعلق قلبه بالله فآمن به و تعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحا و مع ذلك ذكر الله كثيرا فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبى فى أفعاله و أعماله.

و قيل: قوله: «لِمَنْ كانَ» إلخ، صلة لقوله: «حَسَنَةٌ» أو صفة له للمنع عن الإبدال من ضمير الخطاب و مآل الوجوه الثلاثة بحسب المعنى واحد.

قوله تعالى: «وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ»، وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب و نزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم و تبصرهم فى الإيمان و تصديقهم لله و لرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض من الارتياب و سيئ القول، و بذلك يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم بالله و رسوله.

و قوله: «قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» الإشارة بهذا إلى ما شاهدوه مجردا عن سائر الخصوصيات، كما فى قوله: «فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي»،: الأنعام: ۷۸.

و الوعد الذى أشاروا إليه قيل: هو ما كان رسول الله ص قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذى وعدهم.

و قيل: إنهم كانوا قد سمعوا قوله تعالى فى سورة البقرة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ»: البقرة: ۲۱۴ فتحققوا أنهم سيصيبهم ما أصاب الأنبياء و المؤمنين بهم من الشدة و المحنة التى تزلزل القلوب و تدهش النفوس فلما رأوا الأحزاب أيقنوا أنه من الوعد الموعود و أن الله سينصرهم على عدوهم.

و الحق هو الجمع بين الوجهين نظرا إلى جمعهم بين الله و رسوله فى الوعد إذ قالوا:

هذا ما وعدنا الله و رسوله.

و قوله: «وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» شهادة منهم على صدق الوعد، و قوله: «وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً» أى إيمانا بالله و رسوله و تسليما لأمر الله بنصرة دينه و الجهاد فى سبيله.

قوله تعالى: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»، قال الراغب: النحب النذر المحكوم بوجوبه، يقال: قضى فلان نحبه أى وفى بنذره قال تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ»، و يعبر بذلك عمن مات كقولهم: قضى أجله و استوفى أكله و قضى من الدنيا حاجته. انتهى.

و قوله: «صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» أى حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفروا إذا لاقوا العدو، و يشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن فى الآية محاذاة لقوله السابق فى المنافقين و الضعفاء الإيمان: «وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ» كما أن فى الآية السابقة محاذاة لما ذكر سابقا من ارتياب القوم و عدم تسليمهم لأمر الله.

و قوله: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ» إلخ، أى منهم من قضى أجله بموت أو قتل فى سبيل الله و منهم من ينتظر ذلك و ما بدلوا شيئا مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلا.

قوله تعالى: «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً» اللام للغاية و ما تتضمنه الآية غاية لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين و المؤمنين.

فقوله: «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ» المراد بالصادقين المؤمنين و قد ذكر صدقهم قبل، و الباء فى «بِصِدْقِهِمْ» للسببية أى ليجزى المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم.

و قوله: «وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» أى و ليعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم و ذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إن الله كان غفورا رحيما.

و فى الآية من حيث كونها بيان غاية نكتة لطيفة هى أن المعاصى ربما كانت مقدمة للسعادة و المغفرة لا بما أنها معاص بل لكونها سائقة للنفس من الظلمة و الشقوة إلى حيث تتوحش النفس و تتنبه فتتوب إلى ربها و تنتزع عن معاصيها و ذنوبها فيتوب الله عليها فى الغاية.

قوله تعالى: «وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً» الغيظ الغم و الحنق و المراد بالخير ما كان يعده الكفار خيرا و هو الظفر بالنبى ص و المؤمنين.

و المعنى: و رد الله الذين كفروا مع غمهم و حنقهم و الحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونه و كفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا و كان الله قويا على ما يريد عزيزا لا يغلب.

قوله تعالى: «وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ- إلى قوله- قَدِيراً» المظاهرة المعاونة، و الصياصى جمع صيصية و هى الحصن الذى يمتنع به و لعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون و يشرفون منها و من أعالى الجدران على أعدائهم فى خارجها و محاصريهم.

و المعنى: «وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ» أى عاونوا المشركين و هم بنو قريظة «مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ» و هم اليهود «مِنْ صَياصِيهِمْ» و حصونهم «وَ قَذَفَ» و ألقى «فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» و الخوف «فَرِيقاً تَقْتُلُونَ» و هم الرجال «وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً» و هم الذرارى و النساء «وَ أَوْرَثَكُمْ» أى و ملككم بعدهم «أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها» و هى أرض خيبر أو الأرض التى أفاء الله مما لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب، و أما تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح إلى يوم القيامة أو أرض مكة أو أرض الروم و فارس فلا يلائمه سياق الآيتين «وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً»

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣٥]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٢٨) وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (٣١) يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢)

وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِراتِ وَ الْخاشِعِينَ وَ الْخاشِعاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِماتِ وَ الْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (٣٥)

(بيان)

آيات راجعة إلى أزواج النبى ص تأمره أولا: أن ينبئهن أن ليس لهن من الدنيا و زينتها إلا العفاف و الكفاف إن اخترن زوجية النبى ص، ثم تخاطبهن ثانيا:

أنهن واقفات فى موقف صعب على ما فيه من العلو و الشرف فإن اتقين الله يؤتين أجرهن مرتين و إن أتين بفاحشة مبينة يضاعف لهن العذاب ضعفين و يأمرهن بالعفة و لزوم بيوتهن من غير تبرج و الصلاة و الزكاة و ذكر ما يتلى فى بيوتهن من الآيات و الحكمة ثم يعد مطلق الصالحين من الرجال و النساء وعدا بالمغفرة و الأجر العظيم.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ» إلى تمام الآيتين، سياق الآيتين يلوح أن أزواج النبی أو بعضهن كانت لا ترتضی ما فی عيشتهن فی بيت النبی ص من الضيق و الضنک فاشتکت إليه ذلک و اقترحت عليه أن يسعدهن فی الحياة بالتوسعة فيها و إيتائهن من زينتها.

فأمر الله سبحانه نبيه أن يخيرهن بين أن يفارقنه و لهن ما يردن و بين أن يبقين عنده و لهن ما هن عليه من الوضع الموجود.

و قد ردد أمرهن بين أن يردن الحياة الدنيا و زينتها و بين أن يردن الله و رسوله و الدار الآخرة، و هذا الترديد يدل أولا: أن الجمع بين سعة العيش و صفائها بالتمتع من الحياة و زينتها و زوجية النبی ص و العيشة فی بيته مما لا يجتمعان.

و ثانيا: أن كلا من طرفی الترديد مقيد بما يقابل الآخر، و المراد بإرادة الحياة الدنيا و زينتها جعلها هی الأصل سواء أريدت الآخرة أو لم يرد، و المراد بإرادة الحياة الآخرة جعلها- هی الأصل فی تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياة الدنيا و نيلت الزينة و صفاء العيش أو لم يكن شیء من ذلک.

ثم الجزاء أعنی نتيجة اختيارهن كلا من طرفی الترديد مختلف فلهن على تقدير اختيارهن الحياة الدنيا و زينتها بمفارقة النبی ص أن يطلقهن و يمتعهن جمعاء من مال الدنيا، و على تقدير بقائهن على زوجية النبی ص و اختيار الآخرة على الحياة الدنيا و زينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقا بل بشرط الإحسان و العمل الصالح.

و يتبين بذلک أن ليس لزوجية النبی ص من حيث هی زوجية كرامة عند الله سبحانه و إنما الكرامة لزوجيته المقارنة للإحسان و التقوى و لذلک لما ذكر ثانيا علو منزلتهن قيده أيضا بالتقوى فقال: «لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ» و هذا كقوله فی النبی و أصحابه: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً- إلى أن قال- وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً» حيث مدحهم عامة بظاهر أعمالهم أولا ثم قيد وعدهم الأجر العظيم بالإيمان و العمل الصالح.

و بالجملة فإطلاق قوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ»: الحجرات: ١٠ على حاله غير منتقض بكرامة أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلک.

فقوله: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ» أمر النبی ص أن يبلغ الآيتين أزواجه و لازمه أن يطلقهن و يمتعهن إن اخترن الشق الأول و يبقيهن على زوجيته إن اخترن الله و رسوله و الدار الآخرة.

و قوله: «إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها» إرادة الحياة الدنيا و زينتها كناية بقرينة المقابلة عن اختيارها و تعلق القلب بتمتعاتها و الإقبال عليها و الإعراض عن الآخرة.

و قوله: «فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا» قال فی الكشاف:، أصل تعال أن يقوله من فی المكان المرتفع لمن فی المكان المستوطأ ثم كثرت حتى استوت فی استعماله الأمكنة، و معنى تعالين أقبلن بإرادتكن و اختياركن لأحد أمرين و لم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول: أقبل يخاصمنی و ذهب يكلمنی و قام يهددنی. انتهى.

و التمتيع إعطاؤهن عند التطليق مالا يتمتعن به و التسريح هو التطليق و السراح الجميل هو الطلاق من غير خصومة و مشاجرة بين الزوجين.

و فی الآية أبحاث فقهية أوردها المفسرون و الحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصية خاصة بالنبی ص و لا دليل من جهة لفظها على شموله لغيره و تفصيل القول فی الفقه.

و قوله: «وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ» فقد تقدم أن المقابلة بين هذه الجملة و بين قوله: «إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها» إلخ، تقيد كلا منهما بخلاف الأخرى و عدمها، فمعنى الجملة: و إن كنتن تردن و تخترن طاعة الله و رسوله و سعادة الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش و الحرمان من زينة الحياة الدنيا و هی مع ذلک كناية عن البقاء فی زوجية النبی ص و الصبر على ضيق العيش و إلا لم يصح اشتراک الإحسان فی الأجر الموعود و هو ظاهر.

فالمعنى: و إن كنتن تردن و تخترن البقاء على زوجية النبی ص و الصبر على ضيق العيش فإن. الله هيأ لكن أجرا عظيما بشرط أن تكن محسنات فی أعمالكن مضافا إلى إرادتكن الله و رسوله و الدار الآخرة فإن لم تكن محسنات لم يكن لكن إلا خسران الدنيا و الآخرة جميعا.

قوله تعالى: «يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ» إلخ، عدل عن مخاطبة النبی ص فيهن إلى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف و زيادة التوكيد، و الآية و التی بعدها تقرير و توضيح بنحو لما يستفاد من قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً» إثباتا و نفيا.

فقوله: «مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ» الفاحشة الفعلة البالغة فی الشناعة و القبح و هی الكبيرة كإيذاء النبی ص و الافتراء و الغيبة و غير ذلک، و المبينة هی الظاهرة.

و و قوله: «يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ» أی حال كونه ضعفين و الضعفان المثلان و يؤيد هذا المعنى قوله فی جانب الثواب بعد: «نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ» فلا يعبأ بما قيل إن المراد بمضاعفة العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثة أمثاله بتقريب أن مضاعفة العذاب زيادته و إذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثة أمثاله.

و ختم الآية بقوله: «وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» للإشارة إلى أنه لا مانع من ذلک من كرامة الزوجية و نحوها إذ لا كرامة إلا للتقوى و زوجية النبی ص إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى و أما مع المعصية فلا تزيد إلا بعدا و وبالا.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ» إلخ، القنوت الخضوع، و قيل: الطاعة و قيل: لزوم الطاعة مع الخضوع، و الاعتاد التهيئة، و الرزق الكريم مصداقه الجنة.

و المعنى: و من يخضع منكن لله و رسوله أو لزم طاعة الله و رسوله مع الخضوع و يعمل عملا صالحا نعطها أجرها مرتين أى ضعفين و هيأنا لها رزقا كريما و هى الجنة.

و الالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير فى قوله: «نُؤْتِها» و «أَعْتَدْنا» للإيذان بالقرب و الكرامة، خلاف البعد و الخزى المفهوم من قوله: «يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ».

قوله تعالى: «يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» إلخ، الآية تنفى مساواتهن لسائر النساء إن اتقين و ترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهى و الأمر متفرعة على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ وَ قَرْنَ وَ لا تَبَرَّجْنَ إلخ، و هى خصال مشتركة بين نساء النبى ص و سائر النساء.

فتصدير الكلام بقوله: «لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ» ثم تفريع هذه التكاليف المشتركة عليه، يفيد تأكد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل: لستن كغيركن فيجب عليكن أن تبالغن فى امتثال هذه التكاليف و تحتطن فى دين الله أكثر من سائر النساء.

و تؤيد بل تدل على تأكد تكاليفهن مضاعفة جزائهن خيرا و شرا كما دلت عليها الآية السابقة فإن مضاعفة الجزاء لا تنفک عن تأكد التكليف.

و قوله: «فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» بعد ما بين علو منزلتهن و رفعة قدرهن لمكانهن من النبى ص و شرط فى ذلک التقوى فبين أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبى ص نهاهن عن الخضوع فى القول و هو ترقيق الكلام و تليينه مع الرجال بحيث يدعو إلى الريبة و تثير الشهوة فيطمع الذى فى قلبه مرض و هو فقدان قوة الإيمان التى تردعه عن الميل إلى الفحشاء.

و قوله: «وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً» أى كلاما معمولا مستقيما يعرفه الشرع و العرف الإسلامى و هو القول الذى لا يشير بلحنه إلى أزيد من مدلوله معرى عن الإيماء إلى فساد و ريبة.

قوله تعالى: «وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى- إلى قوله- وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» «قرن» من قر يقر إذا ثبت و أصله اقررن حذفت إحدى الرائين أو من قار يقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهن فى بيوتهن و لزومهن لها، و التبرج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها. و الجاهلية الأولى الجاهلية قبل البعثة فالمراد الجاهلية القديمة، و قول بعضهم: إن المراد به زمان ما بين آدم و نوح ع ثمان مائة سنة، و قول آخرين إنها ما بين إدريس و نوح، و قول آخرين

زمان داود و سليمان و قول آخرين إنه زمان ولادة إبراهيم، و قول آخرين إنه زمان الفترة بين عيسى ع و محمد ص أقوال لا دليل يدل عليها.

و قوله: «وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» أمر بامتثال الأوامر الدينية و قد أفرد الصلاة و الزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين فى العبادات و المعاملات ثم جمع الجميع فى قوله: «وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ».

و طاعة الله هى امتثال تكاليفه الشرعية و طاعة رسوله فيما يأمر به و ينهى بالولاية المجعولة له من عند الله كما قال: «النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

قوله تعالى: «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» كلمة «إِنَّما» تدل على حصر الإرادة فى إذهاب الرجس و التطهير و كلمة أهل البيت سواء كان لمجرد الاختصاص أو مدحا أو نداء يدل على اختصاص إذهاب الرجس و التطهير بالمخاطبين بقوله: «عَنْكُمُ»، ففى الآية فى الحقيقة قصران قصر الإرادة فى إذهاب الرجس و التطهير و قصر إذهاب الرجس و التطهير فى أهل البيت.

و ليس المراد بأهل البيت نساء النبى خاصة لمكان الخطاب الذى فى قوله: «عَنْكُمُ» و لم يقل: عنكن فأما أن يكون الخطاب لهن و لغيرهن كما قيل: إن المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام و هم المتقون لقوله تعالى: «إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ» أو أهل مسجد رسول الله ص أو أهل بيت النبى ص و هم الذين يصدق عليهم عرفا أهل بيته من أزواجه و أقربائه و هم آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل على أو النبى ص و أزواجه، و لعل هذا هو المراد مما نسب إلى عكرمة و عروة أنها فى أزواج النبى ص خاصة.

أو يكون الخطاب لغيرهن كما قيل: إنهم أقرباء النبى من آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل على.

و على أى حال فالمراد بإذهاب الرجس و التطهير مجرد التقوى الدينى بالاجتناب عن النواهى و امتثال الأوامر فيكون المعنى أن الله لا ينتفع بتوجيه هذه التكاليف إليكم و إنما يريد إذهاب الرجس عنكم و تطهيركم على حد قوله: «ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ»: المائدة: ۶ و هذا المعنى لا يلائم شيئا من معانى أهل البيت السابقة لمنافاته البينة للاختصاص المفهوم من أهل البيت لعمومه لعامة المسلمين المكلفين بأحكام الدين.

و إن كان المراد بإذهاب الرجس و التطهير التقوى الشديد البالغ و يكون المعنى:

أن هذا التشديد فى التكاليف المتوجهة إليكن أزواج النبى و تضعيف الثواب و العقاب ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس و يطهركم و يكون من تعميم الخطاب لهن و لغيرهن بعد تخصيصه بهن، فهذا المعنى لا يلائم كون الخطاب خاصا بغيرهن و هو ظاهر و لا عموم الخطاب لهن و لغيرهن فإن الغير لا يشاركهن فى تشديد التكليف و تضعيف الثواب و العقاب.

لا يقال: لم لا يجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجها إليهن مع النبی ص و تكليفه شديد كتكليفهن.

لأنه يقال: إنه ص مؤيد بعصمة من الله و هی موهبة إلهية غير مكتسبة بالعمل فلا معنى لجعل تشديد التكليف و تضعيف الجزاء بالنسبة إليه مقدمة أو سببا لحصول التقوى الشديد له امتنانا عليه على ما يعطيه سياق الآية و لذلک لم يصرح بكون الخطاب متوجها إليهن مع النبی ص فقط أحد من المفسرين و إنما احتملناه لتصحيح قول من قال: إن الآية خاصة بأزواج النبی ص.

و إن كان المراد إذهاب الرجس و التطهير بإرادته تعالى ذلک مطلقا لا بتوجيه مطلق التكليف و لا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادة مطلقة لإذهاب الرجس و التطهير لأهل البيت خاصة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافيا لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة الإرادة التشريعية أو التكوينية.

و بهذا الذی تقدم يتأيد ما ورد فی أسباب النزول أن الآية نزلت فی النبی ص و علی و فاطمة و الحسنين ع خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم.

و هی روايات جمة تزيد على سبعين حديثا يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة و عائشة و أبی سعيد الخدری و سعد و وائلة بن الأسقع و أبی الحمراء و ابن عباس و ثوبان مولى النبی و عبد الله بن جعفر و علی و الحسن بن علی ع فی قريب من أربعين طريقا.

و روتها الشيعة عن علی و السجاد و الباقر و الصادق و الرضا ع و أم سلمة و أبی ذر و أبی ليلى و أبی الأسود الدؤلی و عمرو بن ميمون الأودی و سعد بن أبی وقاص فی بضع و ثلاثين طريقا.

فإن قيل: إن الروايات إنما تدل على شمول الآية لعلی و فاطمة و الحسنين ع و لا ينافی ذلک شمولها لأزواج النبی ص كما يفيده وقوع الآية فی سياق خطابهن.

قلنا: إن كثيرا من هذه الروايات و خاصة ما رويت عن أم سلمة- و فی بيتها نزلت الآية- تصرح باختصاصها بهم و عدم شمولها لأزواج النبی و سيجیء الروايات و فيها الصحاح.

فإن قيل: هذا مدفوع بنص الكتاب على شمولها لهن كوقوع الآية فی سياق خطابهن.

قلنا: إنما الشأن كل الشأن فی اتصال الآية بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصة فی نزول الآية وحدها، و لم يرد حتى فی رواية واحدة نزول هذه الآية فی ضمن آيات نساء النبی و لا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآية بأزواج النبی كما ينسب إلى عكرمة و عروة، فالآية لم تكن بحسب النزول جزءا من آيات نساء النبی و لا متصلة بها و إنما وضعت بينها إما بأمر من النبی ص أو عند التأليف بعد الرحلة، و يؤيده أن آية «وَ قَرْنَ فِی بُيُوتِكُنَّ» على انسجامها و اتصالها لو قدر ارتفاع آية التطهير من بين جملها، فموقع آية التطهير من آية «وَ قَرْنَ فِی بُيُوتِكُنَّ» كموقع آية

«الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» من آية محرمات الأكل من سورة المائدة، و قد تقدم الكلام فى ذلک فى الجزء الخامس من الكتاب.

و بالبناء على ما تقدم تصير لفظة أهل البيت اسما خاصا- فى عرف القرآن- بهؤلاء الخمسة و هم النبى و على و فاطمة و الحسنان ع لا يطلق على غيرهم، و لو كان من أقربائه الأقربين و إن صح بحسب العرف العام إطلاقه عليهم.

و الرجس- بالكسر فالسكون- صفة من الرجاسة و هى القذارة، و القذارة هيئة فى الشىء توجب التجنب و التنفر منها، و تكون بحسب ظاهر الشىء كرجاسة الخنزير، قال تعالى: «أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ»: الأنعام: ۱۴۵ و بحسب باطنه- و هو الرجاسة و القذارة المعنوية- كالشرک و الكفر و أثر العمل السيئ، قال تعالى:

«وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ»: التوبة: ۱۲۵ و قال: «وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ»: الأنعام: ۱۲۵. و أيا ما كان فهو إدراک نفسانى و أثر شعورى من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيئ و إذهاب الرجس- و اللام فيه للجنس- إزالة كل هيئة خبيثة فى النفس تخطئ حق الاعتقاد و العمل فتنطبق على العصمة الإلهية التى هى صورة علمية نفسانية تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد و سيئ العمل.

على أنک عرفت أن إرادة التقوى أو التشديد فى التكاليف لا تلائم اختصاص الخطاب فى الآية بأهل البيت، و عرفت أيضا أن إرادة ذلک لا تناسب مقام النبى ص من العصمة.

فمن المتعين حمل إذهاب الرجس فى الآية على العصمة و يكون المراد بالتطهير فى قوله: «وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»- و قد أكد بالمصدر- إزالة أثر الرجس بإيراد ما يقابله بعد إذهاب أصله، و من المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراک الحق فى الاعتقاد و العمل، و يكون المراد بالإرادة أيضا غير الإرادة التشريعية لما عرفت أن الإرادة التشريعية التى هى توجيه التكاليف إلى المكلف لا تلائم المقام أصلا.

و المعنى: أن الله سبحانه تستمر إرادته أن يخصكم بموهبة العصمة بإذهاب الاعتقاد الباطل و أثر العمل السيئ عنكم أهل البيت و إيراد ما يزيل أثر ذلک عليكم و هى العصمة.

قوله تعالى: «وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً» ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد و التشديد الذى فى الآيات فيكون بمنزلة الوصية بعد الوصية بامتثال ما وجه إليهن من التكاليف، و فى قوله فِي بُيُوتِكُنَّ تأكيد آخر.

و المعنى: و احفظن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله و الحكمة و ليكن منكن فى بال حتى لا تغفلن و لا تتخطين مما خط لكم من المسير.

و أما قول بعضهم: إن المراد و اشكرن الله إذ صيركن فى بيوت يتلى فيهن القرآن و السنة فبعيد من السياق و خاصة بالنظر إلى قوله فى ذيل الآية: «إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً».

قوله تعالى: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ» إلخ، الإسلام لا يفرق بين الرجال و النساء فى التلبس بكرامة الدين و قد أشار سبحانه إلى ذلك إجمالا فى مثل قوله: «يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ».: الحجرات: ١٣ ثم صرح به فى مثل قوله:

«أَنِّی لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى».: آل عمران: ١٩٥ ثم صرح به تفصيلا فى هذه الآية.

فقوله: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ» المقابلة بين الإسلام و الإيمان تفيد مغايرتهما نوعا من المغايرة و الذى يستفاد منه نحو مغايرتهما قوله تعالى:

«قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِی قُلُوبِكُمْ - إلى أن قال- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِيلِ اللَّهِ».: الحجرات: ١٥ يفيد أولا أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل و ظاهر الجوارح و الإيمان أمر قلبى. و ثانيا: أن الإيمان الذى هو أمر قلبى اعتقاد و إذعان باطنى بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح.

فالإسلام هو التسليم العملى للدين بإتيان عامة التكاليف و المسلمون و المسلمات هم المسلمون لذلك و الإيمان هو عقد القلب على الدين، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح و المؤمنون و المؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم و لا عكس.

و قوله: «وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ» القنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع و قوله: «وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقاتِ» الصدق مطابقة ما يخبر به الإنسان أو يظهره، للواقع. فهم صادقون فى دعواهم صادقون فى قولهم صادقون فى وعدهم.

و قوله: «وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِراتِ» فهم متلبسون بالصبر عند المصيبة و النائبة و بالصبر على الطاعة و بالصبر عن المعصية، و قوله: «وَ الْخاشِعِينَ وَ الْخاشِعاتِ» الخشوع تذلل باطنى بالقلب كما أن الخضوع تذلل ظاهرى بالجوارح.

و قوله: «وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ» و الصدقة إنفاق المال فى سبيل الله و منه الزكاة الواجبة، و قوله: «وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِماتِ» بالصوم الواجب و المندوب، و قوله:

«وَ الْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ» أى لفروجهن و ذلك بالتجنب عن غير ما أحل الله لهم، و قوله: «وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ» أى الله كثيرا حذف لظهوره و هم الذين يكثرون من ذكر الله بلسانهم و جنانهم و يشمل الصلاة و الحج. و قوله: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً» التنكير للتعظيم.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (٣٦) وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩) ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)

(بيان)

الآيات أعنى قوله: «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ- إلى قوله- وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً» فى قصة تزوج رسول الله ص بزوج مولاه زيد الذى كان قد اتخذه ابنا، و لا يبعد أن تكون الآية الأولى أعنى قوله: «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ» الآية، مرتبطة بالآيات التالية كالتوطئة لها.

قوله تعالى: «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» إلخ، يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعى دون التكوينى فقضاء الله تعالى حكمه التشريعى فى شيء مما يرجع إلى أعمال العباد أو تصرفه فى شأن من شئونهم بواسطة رسول من رسله، و قضاء رسوله هو الثانى من القسمين و هو التصرف فى شأن من شئون الناس بالولاية التى جعلها الله تعالى له بمثل قوله: «النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

فقضاؤه ص قضاء منه بولايته و قضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره، و يشهد سياق قوله: «إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً» حيث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء الله و رسوله معا، على أن المراد بالقضاء التصرف فى شئون الناس دون الجعل التشريعى المختص بالله.

و قوله: «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ» أى ما صح و لا يحق لأحد من المؤمنين و المؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاءوا و قوله: «إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً» ظرف لنفى الاختيار.

و ضميرا الجمع فى قوله: «لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» للمؤمن و المؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين و المؤمنات لوقوعهما فى حيز النفى و وضع الظاهر موضع المضمر حيث قيل:

«مِنْ أَمْرِهِمْ» و لم يقل: أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشإ توهم الخيرة و هو انتساب الأمر إليهم.

و المعنى: ليس لأحد من المؤمنين و المؤمنات إذا قضى الله و رسوله بالتصرف فى أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه إليهم و كونه أمرا من أمورهم فيختاروا منه غير ما قضى الله و رسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله و رسوله.

و الآية عامة لكنها لوقوعها فى سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجىء من قوله: «ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ» الآية، حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبى ص بزوج زيد و تعييره بأنها كانت زوج ابنه المدعو له بالتبنى و سيجىء فى البحث الروائى بعض ما يتعلق بالمقام.

قوله تعالى: «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ» إلى آخر الآية المراد بهذا الذى أنعم الله عليه و أنعم النبى عليه زيد بن حارثة الذى كان عبدا للنبى ص ثم حرره و اتخذه ابنا له و كان تحته زينب بنت جحش بنت عمة النبى ص أتى زيد النبى فاستشاره فى طلاق زينب فنهاه النبى ص عن الطلاق ثم طلقها زيد فتزوجها النبى ص و نزلت الآيات.

فقوله: «أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ» أى بالهداية إلى الإيمان و تحبيبه إلى النبى ص و قوله: «وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» أى بالإحسان إليه و تحريره و تخصيصه بنفسك، و قوله:

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ» كناية عن الكف عن تطليقها، و لا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها.

و قوله: «وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» أى مظهره «وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ» ذيل الآيات أعنى قوله: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ» دليل على أن خشيته ص الناس لم تكن خشية على نفسه بل كان خشية فى الله فأخفى فى نفسه ما أخفاه استشعارا منه أنه لو أظهره عابه الناس و طعن فيه بعض من فى قلبه مرض فأثر ذلك أثرا سيئا فى إيمان العامة، و هذا الخوف- كما ترى ليس خوفا مذموما بل خوف فى الله هو فى الحقيقة خوف من الله سبحانه.

و قوله: «وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ» الظاهر فى نوع من العتاب ردع عن نوع من خشية الله و هى خشيته عن طريق الناس و هداية إلى نوع آخر من خشيته تعالى و أنه كان من الحرى أن يخشى الله دون الناس و لا يخفى ما فى نفسه ما الله مبديه و هذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتروج زوج زيد الذى كان تبناه ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين فى التزوج بأزواج الأدعياء و هو ص كان يخفيه فى نفسه إلى حين مخافة سوء أثره فى الناس فآمنه الله ذلك بعتابه عليه نظير ما تقدم فى قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ- إلى قوله- وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» الآية.

فظاهر العتاب الذى يلوح من قوله: «وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ» مسوق لانتصاره و تأييد أمره قبال طعن الطاعنين ممن فى قلوبهم مرض نظير ما تقدم فى قوله:

«عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ»: التوبة: ۴۳.

و من الدليل على أنه انتصار و تأييد فى صورة العتاب قوله بعد: «فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها» حيث أخبر عن تزويجه إياها كأنه أمر خارج عن إرادة النبى ص و اختياره ثم قوله: «وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا».

فقوله: «فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها» متفرع على ما تقدم من قوله:

وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» و قضاء الوطر منها كناية عن الدخول و التمتع، و قوله:

«لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً» تعليل للتزويج و مصلحة للحكم، و قوله: «وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» مشير إلى تحقق الوقوع و تأكيد للحكم.

و من ذلك يظهر أن الذى كان النبى ص يخفيه فى نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواها و حبه الشديد لها و هى بعد مزوجة كما ذكره جمع من المفسرين و اعتذروا عنه بأنها حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فإن فيه أولا: منع أن يكون بحيث لا يقوى عليه التربية الإلهية، و ثانيا: أنه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانه و إخفائه فى نفسه فلا مجوز فى الإسلام لذكر حلائل الناس و التشبب بهن.

قوله تعالى: «ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» إلخ، الفرض هو التعيين و الاسهام يقال: فرض له كذا أى عينه له و أسهمه به، و قيل: هو فى المقام بمعنى الإباحة و التجويز، و الحرج الكلفة و الضيق، و المراد بنفى الحرج نفى سببه و هو المنع عما فرض له.

و المعنى: ما كان على النبى من منع فيما عين الله له أو أباح الله له حتى يكون عليه حرج فى ذلك.

و قوله: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» اسم موضوع موضع المصدر فيكون مفعولا مطلقا و التقدير سن الله ذلك سنة، و المراد بالذين خلوا من قبل هم الأنبياء و الرسل الماضون بقرينة قوله بعد: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ» إلخ.

و قوله: «وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً» أى يقدر من عنده لكل أحد ما يلائم حاله و يناسبها، و الأنبياء لم يمنعوا مما قدره الله و أباحه لغيرهم حتى يمنع النبى ص من بعض ما قدر و أبيح.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ» إلخ، الموصول بيان للموصول المتقدم أعنى قوله: «الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ».

و الخشية هى تأثر خاص للقلب عن المكروه و ربما ينسب إلى السبب الذى يتوقع منه المكروه، يقال: خشيت أن يفعل بى فلان كذا أو خشيت فلانا أن يفعل بى كذا، و الأنبياء يخشون الله و لا يخشون أحدا غيره لأنه لا مؤثر فى الوجود عندهم إلا الله.

و هذا غير الخوف الذى هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الاتقاء عملا سواء كان معه تأثر قلبى أو لا فإنه أمر عملى ربما ينسب إلى الأنبياء كقوله تعالى حكاية عن موسى ع: «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ»،: الشعراء: ٢١ و قوله فى النبى ص:«وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً»،: الأنفال: ٥٨ و هذا هو الأصل فى معنى الخوف و الخشية و ربما استعملا كالمترادفين.

و مما تقدم يظهر أن الخشية منفية عن الأنبياء ع مطلقا و إن كان سياق قوله: «يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ» إلخ، يلوح إلى أن المنفى هو الخشية فى تبليغ الرسالة. على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية فى أمر التبليغ مستوعبة لجميع أعمالهم.

و قوله: «وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً» أى محاسبا يحاسب على الصغيرة و الكبيرة فيجب أن يخشى و لا يخشى غيره.

قوله تعالى:» ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ» إلخ، لا شك فى أن الآية مسوقة لدفع اعتراضهم على النبى ص بأنه تزوج زوج ابنه و محصل الدفع أنه ليس أبا زيد و لا أبا أحد من الرجال الموجودين فى زمن الخطاب حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا بزوج ابنه فالخطاب فى قوله: «مِنْ رِجالِكُمْ» للناس الموجودين فى زمن نزول الآية، و المراد بالرجال ما يقابل النساء و الولدان و نفى الأبوة نفى تكوينى لا تشريعى و لا تتضمن الجملة شيئا من التشريع.

و المعنى: ليس محمد ص أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا منه بزوج ابنه و زيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطليقه ليس تزوجا بزوج الابن حقيقة و أما تبنيه زيدا فإنه لا يترتب عليه شىء من آثار الأبوة و البنوة و ما جعل أدعياءكم أبناءكم.

و أما القاسم و الطيب و الطاهر «١» و إبراهيم فإنهم أبناؤه حقيقة لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالا حتى ينتقض الآية و كذا الحسن و الحسين و هما ابنا رسول الله فإن النبى ص قبض قبل أن يبلغا حد الرجال.

و مما تقدم ظهر أن الآية لا تقتضى نفى أبوته ص للقاسم و الطيب و الطاهر و إبراهيم و كذا للحسنين لما عرفت أنها خاصة بالرجال الموجودين فى زمن النزول على نعت الرجولية.

و قوله: «وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ» الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع و القالب بمعنى ما يطبع به و ما يقلب به و المراد بكونه خاتم النبيين أن النبوة اختتمت به ص فلا نبى بعده.

و قد عرفت فيما مر معنى الرسالة و النبوة و أن الرسول هو الذى يحمل رسالة من الله إلى الناس و النبى هو الذى يحمل نبأ الغيب الذى هو الدين و حقائقه و لازم ذلك أن يرتفع الرسالة بارتفاع النبوة فإن الرسالة من أنباء الغيب، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة.

و من هنا يظهر أن كونه ص خاتم النبيين يستلزم كونه خاتما للرسل.

و فى الآية إيماء إلى أن ارتباطه ص و تعلقه بكم تعلق الرسالة و النبوة و أن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه.

و قوله: «وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيماً» أى ما بينه لكم إنما كان بعلمه.

---

(۱) هذا على ما هو المعروف و قال بعضهم: إن الطيب و الطاهر لقبان للقاسم.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۱ الى ۴۸]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (۴۱) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (۴۲) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (۴۳) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (۴۴) يا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۴۵)

وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً (۴۶) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (۴۷) وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (۴۸)

بيان

آيات تدعو المؤمنين إلى الذكر و التسبيح و تبشرهم و تعدهم الوعد الجميل و تخاطب النبى ص بصفاته الكريمة و تأمره أن يبشر المؤمنين و لا يطيع الكافرين و المنافقين، و يمكن أن يكون القبيلان مختلفين فى النزول زمانا.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً» الذكر ما يقابل النسيان و هو توجيه الإدراك نحو المذكور و أما التلفظ بما يدل عليه من أسمائه و صفاته فهو بعض مصاديق الذكر.

قوله تعالى: «وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا» التسبيح هو التنزيه و هو مثل الذكر لا يتوقف على اللفظ و إن كان التلفظ بمثل سبحان الله بعض مصاديق التسبيح.

و البكرة أول النهار و الأصيل آخره بعد العصر و تقييد التسبيح بالبكرة و الأصيل لما فيهما من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه و تنزيهه من التغير و التحول و كل نقص طار، و يمكن أن يكون البكرة و الأصيل معا كناية عن الدوام كالليل و النهار فى قوله:

«يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ»: حم السجدة: ۳۸.

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب إليه و لذلک قيل: إن الصلاة من الله الرحمة و من الملائكة الاستغفار و من الناس الدعاء لكن الذى نسب من الصلاة إلى الله سبحانه فى القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصة بالمؤمنين و هى التى تترتب عليها سعادة العقبى و الفلاح المؤبد و لذلک علل تصليته عليهم بقوله: «لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً».

و قد رتب سبحانه فى كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم و على ذكرهم له ذكره لهم فقال: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ»،: التوبة: ٦٧ و قال: «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ»: البقرة: ١٥٢ و تصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمة فإن ذكروه كثيرا و سبحوه بكرة و أصيلا صلى عليهم كثيرا و غشيهم بالنور و أبعدهم من الظلمات.

و من هنا يظهر أن قوله: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ» إلخ، فى مقام التعليل لقوله:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً» و تفيد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيرا ذكركم برحمته كثيرا و بالغ فى إخراجكم من الظلمات إلى النور و يستفاد منه أن الظلمات إنما هى ظلمات النسيان و الغفلة و النور نور الذكر.

و قوله: «وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً» وضع الظاهر موضع المضمر، أعنى قوله:

«بِالْمُؤْمِنِينَ» و لم يقل: و كان بكم رحيما، ليدل به على سبب الرحمة و هو وصف الإيمان.

قوله تعالى: «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً» ظاهر السياق أن «تَحِيَّتُهُمْ» مصدر مضاف إلى المفعول أى إنهم يحيون- بالبناء للمفعول- يوم يلقون ربهم من عند ربهم و من ملائكته بالسلام أى إنهم يوم اللقاء فى أمن و سلام لا يصيبهم مكروه و لا يمسهم عذاب.

و قوله: «وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً» أى و هيأ الله لهم ثوابا جزيلا.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً» شهادته ص على الأعمال أن يتحملها فى هذه النشأة و يؤديها يوم القيامة و قد تقدم فى قوله: «لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً»،: البقرة: ١١٢ و غيره من آيات الشهادة أنه ص شهيد الشهداء.

و كونه مبشرا و نذيرا تبشيره المؤمنين المطيعين لله و رسوله بثواب الله و الجنة و إنذاره الكافرين و العاصين بعذاب الله و النار.

قوله تعالى: «وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً» دعوته إلى الله هى دعوته الناس إلى الإيمان بالله وحده، و لازمه الإيمان بدين الله و تقيد الدعوة بإذن الله يجعلها مساوقة للبعثة.

و كونه ص سراجا منيرا هو كونه بحيث يهتدى به الناس إلى سعادتهم و ينجون من ظلمات الشقاء و الضلالة فهو من الاستعارة، و قول بعضهم: إن المراد بالسراج المنير القرآن و التقدير ذا سراج منير تكلف من غير موجب.

قوله تعالى: «وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً»، الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممن يأخذه و قد وصف الله عطاءه فقال: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها»: الأنعام: ۱۶۰ و قال: «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ»: ق: ۳۵ فبين أنه يعطى من الثواب ما لا يقابل العمل و هو الفضل و لا دليل فى الآية يدل على اختصاصه بالآخرة.

قوله تعالى: «وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» إلخ، تقدم معنى طاعة الكافرين و المنافقين فى أول السورة.

و قوله: «وَ دَعْ أَذاهُمْ» أى اترک ما يؤذونک بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به و الدليل على هذا المعنى قوله: «وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أى لا تستقل بنفسک فى دفع أذاهم بل اجعل الله وكيلا فى ذلک و كفى بالله وكيل

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۹ الى ۶۲]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (۴۹) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُکَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْکَ وَ بَناتِ عَمِّکَ وَ بَناتِ عَمَّاتِکَ وَ بَناتِ خالِکَ وَ بَناتِ خالاتِکَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَکَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَکَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْکَ حَرَجٌ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۰) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْکَ مَنْ تَشاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْکَ ذلِکَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (۵۱) لا يَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَکَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُکَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (۵۲) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (۵۳)

إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۵۴) لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۵۵) إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِیناً (۵۷) وَ الَّذِینَ یُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَیْرِ مَا اکْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِیناً (۵۸)

یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ وَ بَناتِکَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِینَ یُدْنِینَ عَلَیْهِنَّ مِنْ جَلابِیبِهِنَّ ذلِکَ أَدْنی أَنْ یُعْرَفْنَ فَلا یُؤْذَیْنَ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِی الْمَدِینَةِ لَنُغْرِیَنَّکَ بِهِمْ ثُمَّ لا یُجاوِرُونَکَ فِیها إِلاَّ قَلِیلاً (۶۰) مَلْعُونِینَ أَیْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِیلاً (۶۱) سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِیلاً (۶۲)

(بیان)

تتضمن الآیات أحکاما متفرقة بعضها خاصة بالنبی ص و أزواجه و بعضها عامة.

قوله تعالی: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَکُمْ عَلَیْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِیلًا» المراد بنکاحهن العقد علیهن بالنکاح، و بالمس الدخول، و بالتمتیع إعطاؤهن شیئا من المال یناسب شأنهن و حالهن و التسریح بالجمیل إطلاقهن من غیر خصومة و خشونة.

و المعنی: إذا طلقتم النساء بعد النکاح و قبل الدخول فلا عدة لهن للطلاق و یجب تمتیعهن بشیء من المال و السراح الجمیل.

و الآیة مطلقة تشمل ما إذا فرض لهن فریضة المهر و ما إذا لم یفرض فیقیدها قوله: «وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِیضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ»: البقرة: ۲۳۷ و تبقی حجة فیما لم یفرض لهن فریضة.

قوله تعالی: «یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ اللَّاتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ» إلی آخر الآیة، یذکر سبحانه لنبیه ص بالإحلال سبعة أصناف من النساء: الصنف الأول ما فی قوله: «أَزْواجَکَ اللَّاتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ» و المراد بالأجور المهور، و الثانی ما فی قوله: «وَ ما مَلَکَتْ یَمِینُکَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَیْکَ» أی من یملکه من الإماء الراجعة إلیه من الغنائم و الأنفال، و تقیید ملک الیمین بکونه مما أفاء الله علیه کتقیید الأزواج بقوله: «اللَّاتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ» للتوضیح لا للاحتراز.

و الثالث و الرابع ما فی قوله: «وَ بَناتِ عَمِّکَ وَ بَناتِ عَمَّاتِکَ» قیل: یعنی نساء قریش، و الخامس و السادس ما فی قوله: «وَ بَناتِ خالِکَ وَ بَناتِ خالاتِکَ» قیل: یعنی نساء بنی زهرة، و قوله: «اللَّاتِی هاجَرْنَ مَعَکَ» قال فی المجمع:، هذا إنما کان قبل تحلیل غیر المهاجرات ثم نسخ شرط الهجرة فی التحلیل.

و السابع ما فی قوله: «وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِیِّ إِنْ أَرادَ النَّبِیُّ أَنْ یَسْتَنْکِحَها» و هی المرأة المسلمة التی بذلت نفسها للنبی ص بمعنی أن ترضی أن یتزوج بها من غیر صداق و مهر فإن الله أحلها له إن أراد أن یستنکحها، و قوله:

«خالِصَةً لَکَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ» إیذان بأن هذا الحکم- أی حلیة المرأة للرجل ببذل النفس- من خصائصه لا یجری فی المؤمنین، و قوله بعده: «قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَیْهِمْ فِی أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُمْ» تقریر لحکم الاختصاص.

و قوله: «لِکَیْلا یَکُونَ عَلَیْکَ حَرَجٌ» تعلیل لقوله فی صدر الآیة: «إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ» أو لما فی ذیلها من حکم الاختصاص و الأول أظهر و قد ختمت الآیة بالمغفرة و الرحمة.

قوله تعالی: «تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَیْکَ مَنْ تَشاءُ» إلخ، الإرجاء التأخیر و التبعید، و هو کنایة عن الرد، و الإیواء: الإسکان فی المکان و هو کنایة عن القبول و الضم إلیه. و السیاق یدل علی أن المراد به أنه ص علی خیرة من قبول من وهبت نفسها له أو رده.

و قوله: «وَ مَنِ ابْتَغَیْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَیْکَ»، الابتغاء هو الطلب أی و من طلبتها من اللاتی عزلتها و لم تقبلها فلا إثم علیک و لا لؤم أی یجوز لک أن تضم إلیک من عزلتها و رددتها من النساء اللاتی وهبن أنفسهن لک بعد العزل و الرد.

و یمکن أن یکون إشارة إلی أن له ص أن یقسم بین نسائه و أن یترک القسم فیؤخر من یشاء منهن و یقدم من یشاء و یعزل بعضهن من القسم فلا یقسم لها أو یبتغیها فیقسم لها بعد العزل و هو أوفق لقوله بعده: «وَ مَنِ ابْتَغَیْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَیْکَ ذلِکَ أَدْنی- أی أقرب- أَنْ تَقَرَّ أَعْیُنُهُنَّ- أی یسررن- وَ لا یَحْزَنَّ وَ یَرْضَیْنَ بِما آتَیْتَهُنَّ کُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ ما فِی قُلُوبِکُمْ» و ذلک لسرور المتقدمة بما قسمت له و رجاء المتأخرة أن تتقدم بعد.

و قوله: «وَ کانَ اللَّهُ عَلِیماً حَلِیماً» أی یعلم مصالح عباده و لا یعاجل فی العقوبة.

و فی الآیة أقوال مختلفة أخر و الذی أوردناه هو الأوفق لوقوعها فی سیاق سابقتها متصلة بها و به وردت الأخبار عن أئمة أهل البیت ع کما سیجیء.

قوله تعالی: «لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَکَ حُسْنُهُنَّ» إلخ، ظاهر الآیة لو فرضت مستقلة فی نفسها غیر متصلة بما قبلها تحریم النساء له ص إلا من خیرهن فاخترن الله و نفی جواز التبدل بهن یؤید ذلک.

لکن لو فرضت متصلة بما قبلها و هو قوله: «إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ» إلخ، کان مدلولها تحریم ما عدا المعدودات و هی الأصناف الستة التی تقدمت.

و فی بعض الروایات عن بعض أئمة أهل البیت ع أن المراد بالآیة محرمات النساء المعدودة فی قوله: «حُرِّمَتْ عَلَیْکُمْ أُمَّهاتُکُمْ وَ بَناتُکُمْ» الآیة: النساء: ۲۳.

فقوله: «لا يَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ» أی من بعد اللاتی اخترن الله و رسوله و هی التسعة علی المعنی الأول أو من بعد من عددناه فی قولنا: «إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ» علی المعنی الثانی أو من بعد المحللات و هی المحرمات علی المعنی الثالث.

و قوله: «وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ» أی أن تطلق بعضهن و تزوج مکانها من غیرهن، و قوله: «إِلَّا ما مَلَکَتْ یَمِینُکَ» یعنی الإماء و هو استثناء من قوله فی صدر الآیة «لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ».

و قوله: «وَ کانَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ رَقِیباً» معناه ظاهر و فیه تحذیر عن المخالفة.

قوله تعالی: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُیُوتَ النَّبِیِّ إِلَّا أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ- إلی قوله- مِنَ الْحَقِّ» بیان لأدب الدخول فی بیوت النبی ص، و قوله: «إِلَّا أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ» استثناء من النهی، و قوله: «إِلی طَعامٍ» متعلق بالإذن، و قوله: «غَیْرَ ناظِرِینَ إِناهُ» أی غیر منتظرین لورود إناء الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطیلوا المکث فی انتظار الطعام و یبینه قوله: «وَ لکِنْ إِذا دُعِیتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ- أی أکلتم- فَانْتَشِرُوا»، و قوله: «وَ لا مُسْتَأْنِسِینَ لِحَدِیثٍ» عطف علی قوله: «غَیْرَ ناظِرِینَ إِناهُ» و هو حال بعد حال، أی غیر ماکثین فی حال انتظار الإناء قبل الطعام و لا فی حال الاستئناس لحدیث بعد الطعام.

و قوله: «إِنَّ ذلِکُمْ کانَ یُؤْذِی النَّبِیَّ فَیَسْتَحْیِی مِنْکُمْ» تعلیل للنهی أی لا تمکثوا کذلک لأن مکثکم ذلک کان یتأذی منه النبی فیستحیی منکم أن یسألکم الخروج و قوله: «وَ اللَّهُ لا یَسْتَحْیِی مِنَ الْحَقِّ» أی من بیان الحق لکم و هو ذکر تأذیه و التأدیب بالأدب اللائق.

قوله تعالی: «وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِکُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِکُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ»، ضمیر «سَأَلْتُمُوهُنَّ» لأزواج النبی ص و سؤالهن متاعا کنایة عن تکلیمهن لحاجة أی إذا مست الحاجة إلی تکلیمکم أزواج النبی ص فکلموهن من وراء حجاب، و قوله: «ذلِکُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِکُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ» بیان لمصلحة الحکم.

قوله تعالی: «وَ ما کانَ لَکُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لا أَنْ تَنْکِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً» إلخ، أی لیس لکم إیذاؤه بمخالفة ما أمرتم فی نسائه و فی غیر ذلک و لیس لکم أن تنکحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلکم أی نکاحکم أزواجه من بعده کان عند الله عظیما، و فی الآیة إشعار بأن بعضهم ذکر ما یشیر إلی نکاحهم أزواجه بعده و هو کذلک کما سیأتی فی البحث الروائی الآتی.

قوله تعالی: «إِنْ تُبْدُوا شَیْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً» معناه ظاهر و هو فی الحقیقة تنبیه تهدیدی لمن کان یؤذی النبی ص أو یذکر نکاح أزواجه من بعده.

قوله تعالی: «لا جُناحَ عَلَیْهِنَّ فِی آبائِهِنَّ» إلی آخر الآیة ضمیر «عَلَیْهِنَّ» لنساء النبی ص، و الآیة فی معنی الاستثناء من عموم حکم الحجاب و قد استثنی الآباء و الأبناء و الإخوان و أبناء الإخوان و أبناء الأخوات و هؤلاء محارم، قیل: و لم یذکر الأعمام و الأخوال لأنهم من الممکن أن یصفوهن لأبنائهم.

و استثنى أيضا نساءهن و إضافة النساء إلى ضمير هن يلوح إلى أن المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كما مر فى قوله تعالى: «أَوْ نِسائِهِنَّ»: النور: ٣١ و استثنى أيضا ما ملكت أيمانهن من العبيد و الإماء.

و قوله: «وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً» فيه تأكيد الحكم و خاصة من جهة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فى «اتَّقِينَ اللَّهَ».

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً» قد تقدم أن أصل الصلاة الانعطاف فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافا مطلقا لم يقيد فى الآية بشىء دون شىء و كذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتزكية و الاستغفار و هى من المؤمنين الدعاء بالرحمة.

و فى ذكر صلاته تعالى و صلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أن فى صلاة المؤمنين له اتباعا لله سبحانه و ملائكته و تأكيدا للنهى الآتى.

و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنة أن طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالى أن يصلى عليه و آله.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً» من المعلوم أن الله سبحانه منزه من أن يناله الأذى و كل ما فيه وصمة النقص و الهوان فذكره مع الرسول و تشريكه فى إيذائه تشريف للرسول و إشارة إلى أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضا بالسوء إذ ليس للرسول بما أنه رسول إلا ربه فمن قصده فقد قصد ربه. و قد أوعدهم باللعن فى الدنيا و الآخرة و اللعن هو الإبعاد من الرحمة و الرحمة الخاصة بالمؤمنين هى الهداية إلى الاعتقاد الحق و حقيقة الإيمان، و يتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمة فى الدنيا تحريمه عليه جزاء لعمله فيرجع إلى طبع القلوب كما قال:

«لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً»: المائدة: ١٣ و قال: «وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا»: النساء: ۴۶ و قال: «أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ»: سورة محمد: ٢٣.

و أما اللعن فى الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب فيها و قد قال تعالى: «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ»: المطففين: ١۵.

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم- أى فى الآخرة- عذابا مهينا و وصف العذاب بالمهين لأنهم يقصدون باستكبارهم فى الدنيا إهانة الله و رسوله فقوبلوا فى الآخرة بعذاب يهينهم.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً» تقييد إيذائهم بغير ما اكتسبوا لأن إيذاءهم بما اكتسبوا كما فى القصاص و الحد و التعزير لا إثم فيه.

و أما إيذاؤهم بغير ما اكتسبوا و من دون استحقاق فيعده سبحانه احتمالا للبهتان و الإثم المبين، و البهتان هو الكذب على الغير يواجهه به، و وجه كون الإيذاء من غير اكتساب بهتانا أن المؤذى إنما يؤذى لسبب عنده يعده جرما له يقول: لم قال كذا؟

لم فعل كذا؟ و ليس بجرم فيبهته عند الإيذاء بنسبة الجرم إليه مواجهة و ليس بجرم.

و كونه إثما مبينا لأن الافتراء و البهتان مما يدرک العقل كونه إثما من غير حاجة إلى ورود النهى عنهما شرعا.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ وَ بَناتِکَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ» إلخ، الجلابيب جمع جلباب و هو ثوب تشتمل به المرأة فيغطى جميع بدنها أو الخمار الذى تغطى به رأسها و وجهها.

و قوله: «يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ» أى يتسترن بها فلا تظهر جيوبهن و صدورهن للناظرين.

و قوله: «ذلِکَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ» أى ستر جميع البدن أقرب إلى أن يعرفن أنهن أهل الستر و الصلاح فلا يؤذين أى لا يؤذيهن أهل الفسق بالتعرض لهن.

و قيل: المعنى ذلک أقرب من أن يعرفن أنهن مسلمات حرائر فلا يتعرض لهن بحسبان أنهن إماء أو من غير المسلمات من الكتابيات أو غيرهن و الأول أقرب.

قوله تعالى: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّکَ بِهِمْ» إلخ، الانتهاء عن الشىء الامتناع و الكف عنه، و الإرجاف إشاعة الباطل للاغتمام به و إلقاء الاضطراب بسببه، و الإغراء بالفعل التحريض عليه.

و المعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض عن الإفساد و الذين يشيعون الأخبار الكاذبة فى المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنحرضنک عليهم ثم يجاورونک فى المدينة بسبب نفيهم عنها إلا زمانا قليلا و هو ما بين صدور الأمر و فعلية إجرائه.

قوله تعالى: «مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا» الثقف إدراک الشىء و الظفر به، و الجملة حال من المنافقين و من عطف عليهم أى حال كونهم ملعونين أينما وجدوا أخذوا و بولغ فى قتلهم فعمهم القتل.

قوله تعالى: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» السنة هى الطريقة المعمولة التى تجرى بطبعها غالبا أو دائما.

يقول سبحانه هذا النكال الذى أوعدنا به المنافقين و من يحذو حذوهم من النفى و القتل الذريع هى سنة الله التى جرت فى الماضين فكلما بالغ قوم فى الإفساد و إلقاء الاضطراب بين الناس و تمادوا و طغوا فى ذلک أخذناهم كذلک و لن تجد لسنة الله تبديلا فتجرى فيكم كما جرت فى الأمم من قبلكم

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٧٣]

يَسْئَلُکَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَکُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْکافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦۴) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (٦۵) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِی النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ کُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧)

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً کَبِيراً (٦٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَکُونُوا کَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ کانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (٦٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَکُمْ أَعْمالَکُمْ وَ يَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ کانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢)

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِکِينَ وَ الْمُشْرِکاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)

(بيان)

آيات تذکر شأن الساعة و بعض ما يجرى على الکفار من عذابها و تأمر المؤمنين بالقول السديد و تعدهم عليه وعدا جميلا ثم تختتم السورة بذکر الأمانة.

قوله تعالى: «يَسْئَلُکَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَکُونُ قَرِيباً» تذکر الآية سؤال الناس عن الساعة و إنما کانوا يريدون أن يقدر لهم زمن وقوعها و أنها قريبة أو بعيدة کما يومئ إليه التعبير عنها بالساعة فأمر أن يجيبهم بقصر العلم بها فی الله سبحانه و على ذلک جرت الحال کلما ذکرت فی القرآن.

و قوله: «وَ ما يُدْرِيکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَکُونُ قَرِيباً» زيادة فی الإبهام و ليعلموا أن النبی ص مثل غيره فی عدم العلم بها و ليس من الستر الذی أسره إليه و ستره من الناس.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْکافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً» لعن الکفار إبعادهم من الرحمة، و الإعداد التهيئة، و السعير النار التی أشعلت فالتهبت، و الباقی ظاهر.

قوله تعالى: «خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» الفرق بين الولی و النصير أن الولی يلی بنفسه تمام الأمر و المولى عليه بمعزل، و النصير يعين المنصور على بعض الأمر و هو إتمامه فالولی يتولى الأمر کله و النصير يتصدى بعضه، و الباقی ظاهر.

قوله تعالى: «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا» تقلب وجوههم فى النار تحولها لحال بعد حال فتصفر و تسود و تكون كالحة أو انتقالها من جهة إلى جهة لتكون أبلغ فى مس العذاب كما يفعل باللحم المشوى.

و قولهم: «يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا» كلام منهم على وجه التحسر و التمنى.

قوله تعالى: «وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا» السادة جمع سيد و هو- على ما فى المجمع،- المالك المعظم الذى يملک تدبير السواد الأعظم و هو الجمع الأكثر، و الكبراء جمع كبير و لعل المراد به الكبير سنا فالعامة تطيع و تقلد أحد رجلين إما سيد القوم و إما أسنهم.

قوله تعالى: «رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً» الضعفان المثلان و إنما سألوا لهم ضعفى العذاب لأنهم ضلوا فى أنفسهم و أضلوا غيرهم، و لذلک أيضا سألوا لهم اللعن الكبير.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً» نهى عن أن يكونوا كبعض بنى إسرائيل فيعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء و ليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل و إن كان منهيا عنه بل قوله: «فَبَرَّأَهُ اللَّهُ» يشهد بأنه كان إيذاء من قبيل التهمة و الافتراء المحوج فى رفعه إلى التبرئة و التنزيه.

و لعل السكوت عن ذكر ما آذوا به موسى ع يؤيد ما ورد فى الحديث أنهم قالوا: ليس لموسى ما للرجال فبرأه الله من قولهم و سيوافيک.

و أوجه ما قيل فى إيذائهم النبى ص أنه إشارة إلى قصة زيد و زينب، و إن يكن كذلک فمن إيذائه ص ما فى كثير من روايات القصة من سردها على نحو لا يناسب ساحة قدسه.

و قوله: «وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً» أى ذا جاه و منزلة و الجملة مضافا إلى اشتمالها على التبرئة إجمالا تعلل تبرئته تعالى له و للآية و ما بعدها نوع اتصال بالآيات الناهية عن إيذاء النبى ص.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً»، السديد من السداد و هو الإصابة و الرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقة الواقع و عدم كونه لغوا أو ذا فائدة غير مشروعة كالنميمة و غير ذلک فعلى المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلم به و أن لا يكون لغوا أو يفسد به إصلاح.

قوله تعالى: «يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً» رتب على ملازمة القول السديد إصلاح الأعمال و مغفرة الذنوب و ذلک أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول و لغو الحديث و الكلام الذى يترتب عليه فساد، و برسوخ هذه الصفة فيها تنقطع طبعا عن الفحشاء و المنكر و اللغو فى الفعل

و عند ذلک يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ما ضيعه من عمره فى موبقات الذنوب إن كان قد ابتلى بشیء من ذلک و كفى بالندم توبة. و يحفظه الله فيما بقى من عمره عن اقتحام المهلكات و إن رام شيئا من صغائر الذنوب غفر الله له فقد قال الله تعالى: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ»: النساء: ۳۱ فملازمة القول السديد تسوق الإنسان إلى صلاح الأعمال و مغفرة الذنوب بإذن الله.

و قوله: «وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً» وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة و الاجتناب عن جميع المناهى بترتيب الفوز العظيم على طاعة الله و رسوله.

و بذلک تختتم السورة فى معناها فى الحقيقة لأن طاعة الله و رسوله هى الكلمة الجامعة بين جميع الأحكام السابقة، من واجبات و محرمات و الآيتان التاليتان كالمتمم لمعنى هذه الآية.

قوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا- إلى قوله- غَفُوراً رَحِيماً» الأمانة- أيا ما كانت- شیء يودع عند الغير ليحتفظ عليه ثم يرده إلى من أودعه، فهذه الأمانة المذكورة فى الآية شیء ائتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته و استقامته ثم يرده إليه سبحانه كما أودعه.

و يستفاد من قوله: «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ» إلخ، أنه أمر يترتب على حمله النفاق و الشرک و الإيمان، فينقسم حاملوه باختلاف كيفية حملهم إلى منافق و مشرک و مؤمن.

فهو لا محالة أمر مرتبط بالدين الحق الذى يحصل بالتلبس به و عدم التلبس به النفاق و الشرک و الإيمان.

فهل هو الاعتقاد الحق و الشهادة على توحده تعالى أو مجموع الاعتقاد و العمل بمعنى أخذ الدين الحق بتفاصيله مع الغض عن العمل به، أو التلبس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التلبس بواحد من هذه الأمور.

و ليست هى الأول أعنى التوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرهما من شیء توحده تعالى و تسبح بحمده، و قد قال تعالى: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»: إسراء: ۴۴ و الآية تصرح بإبائها عنه.

و ليست هى الثانى أعنى الدين الحق بتفاصيله فإن الآية تصرح بحمل الإنسان كائنا من كان من مؤمن و غيره له و من البين أن أكثر من لا يؤمن لا يحمله و لا علم له به، و بهذا يظهر أنها ليست بالثالث و هو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلا.

و ليست هى الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرهما ناطقة بالتوحيد فعلا متلبسة به.

و ليست هى الكمال الحاصل من أخذ دين الحق و العلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق و العلم بالتكاليف الدينية نفاق و لا شرك و لا إيمان و لا يستعقب سعادة و لا شقاء و إنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق و التلبس بالعمل.

فبقى أنها الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد و العمل الصالح و سلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادة إلى أوج الإخلاص الذى هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره و هو الولاية الإلهية.

فالمراد بالأمانة الولاية الإلهية و بعرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسة إليها و المراد بحملها و الإباء عنه وجود استعدادها و صلاحية التلبس بها و عدمه، و هذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآية فالسماوات و الأرض و الجبال على ما فيها من العظمة و الشدة و القوة فاقدة لاستعداد حصولها فيها و هو المراد بإبائهن عن حملها و إشفاقهن منها.

لكن الإنسان الظلوم الجهول لم يأب و لم يشفق من ثقلها و عظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل و عظم الخطر فتعقب ذلک أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانة و عدمه بالخيانة إلى منافق و مشرک و مؤمن بخلاف السماوات و الأرض و الجبال فما منها إلا مؤمن مطيع.

فإن قلت: ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملا لا يتحمله لثقله و عظم خطره السماوات و الأرض و الجبال على عظمتها و شدتها و قوتها و هو يعلم أنه أضعف من أن يطيق حمله و إنما حمله على قبولها ظلمه و جهله و أجرأه عليه غروره و غفلته عن عواقب الأمور فما تحميله الأمانة باستدعائه لها ظلما و جهلا إلا كتقليد مجنون ولاية عامة يأبى قبولها العقلاء و يشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله و عدم استقامة فكره.

قلت: الظلم و الجهل فى الإنسان و إن كانا بوجه ملاک اللوم و العتاب فهما بعينهما مصحح حمله الأمانة و الولاية الإلهية فإن الظلم و الجهل إنما يتصف بهما من كان من شأنه الاتصاف بالعدل و العلم فالجبال مثلا لا تتصف بالظلم و الجهل فلا يقال: جبل ظالم أو جاهل لعدم صحة اتصافه بالعدل و العلم و كذلک السماوات و الأرض لا يحمل عليها الظلم و الجهل لعدم صحة اتصافها بالعدل و العلم بخلاف الإنسان.

و الأمانة المذكورة فى الآية و هى الولاية الإلهية و كمال صفة العبودية إنما تتحصل بالعلم بالله و العمل الصالح الذى هو العدل و إنما يتصف بهذين الوصفين أعنى العلم و العدل الموضوع القابل للجهل و الظلم فكون الإنسان فى حد نفسه و بحسب طبعه ظلوما جهولا هو المصحح لحمل الأمانة الإلهية فافهم ذلک.

فمعنى الآيتين «١» يناظر بوجه معنى قوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»: التين: ۶.

فقوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ» أى الولاية الإلهية و الاستكمال بحقائق الدين الحق علما و عملا و عرضها هو اعتبارها مقيسة إلى هذه الأشياء.

و قوله: «عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ» أى هذه المخلوقات العظيمة التى خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال: «لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ»،: المؤمن: ۵۷ و قوله: «فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها» إباؤها عن حملها و إشفاقها منها عدم اشتمالها على صلاحية التلبس و تجافيها عن قبولها و فى التعبير بالحمل إيماء إلى أنها ثقيلة ثقلا لا يحتملها السماوات و الأرض و الجبال.

و قوله: «وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ» أى اشتمل على صلاحيتها و التهيؤ للتلبس بها على ضعفه و صغر حجمه «إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا» أى ظالما لنفسه جاهلا بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة و الهلاک الدائم.

و بمعنى أدق لكون الإنسان خاليا بحسب نفسه عن العدل و العلم قابلا للتلبس بما

---

(۱) فالآية الاولى تحاذى الاولى و الثانية تحاذى الثانية و الثالثة.

يفاض عليه من ذلک و الارتقاء من حضيض الظلم و الجهل إلى أوج العدل و العلم.

و الظلوم و الجهول وصفان من الظلم و الجهل معناهما من كان من شأنه الظلم و الجهل نظير قولنا: فرس شموس و دابة جموح و ماء طهور أى من شأنها ذلک كما قاله الرازى أو معناهما المبالغة فى الظلم و الجهل كما ذكر غيره، و المعنى مستقيم كيفما كانا.

و قوله: «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ» اللام للغاية أى كانت عاقبة هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات و ذلک أن الخائن للأمانة يتظاهر فى الأغلب بالصلاح و الأمانة و هو النفاق و قليلا ما يتظاهر بالخيانة لها و لعل اعتبار هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين و المنافقات فى الآية على المشركين و المشركات.

و قوله: «وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» عطف على «لِيُعَذِّبَ» أى و كان عاقبة ذلک أن يتوب الله على المؤمنين و المؤمنات، و التوبة من الله هى رجوعه إلى عبده بالرحمة فيرجع إلى الإنسان إذا آمن به و لم يخن بالرحمة و يتولى أمره و هو ولى المؤمنين فيهديه إليه بالستر على ظلمه و جهله و تحليته بالعلم النافع و العمل الصالح لأنه غفور رحيم.

فإن قلت: ما هو المانع من جعل الأمانة بمعنى التكليف و هو الدين الحق و كون الحمل بمعنى الاستعداد و الصلاحية و الإباء هو فقده و العرض هو اعتبار القياس فيجرى فيه حينئذ جميع ما تقدم فى بيان الانطباق على الآية.

قلت: نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمة لحصول الولاية الإلهية و تحقق صفة العبودية الكاملة فهى المعروضة بالحقيقة و المطلوبة لنفسها.

و الالتفات فى قوله: «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ» من التكلم إلى الغيبة و الإتيان باسم الجلالة للدلالة على أن عواقب الأمور إلى الله سبحانه لأنه الله.

و وضع الظاهر موضع المضمر فى قوله: «وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ» للإشعار بكمال العناية فى حقهم و الاهتمام بأمرهم.

و لهم فى تفسير الأمانة المذكورة فى الآية أقوال مختلفة:

فقيل: المراد بها التكاليف الموجبة طاعتها دخول الجنة و معصيتها دخول النار و المراد بعرضها على السماوات و الأرض و الجبال اعتبارها بالنسبة إلى استعدادها و إباؤهن عن حملها و إشفاقهن منها عدم استعدادهن لها، و حمل الإنسان لها استعداده، و الكلام جار مجرى التمثيل.

و قيل: المراد بها العقل الذى هو ملاك التكليف و مناط الثواب و العقاب.

و قيل: هى قول لا إله إلا الله.

و قيل: هى الأعضاء فالعين أمانة من الله يجب حفظها و عدم استعمالها إلا فيما يرتضيه الله تعالى، و كذلک السمع و اليد و الرجل و الفرج و اللسان.

و قيل: المراد بها أمانات الناس و الوفاء بالعهود.

و قيل: المراد بها معرفة الله بما فيها و هذا أقرب الأقوال من الحق يرجع بتقريب ما إلى ما قدمنا.

و كذلک اختلف فى معنى عرض الأمانة عليها على أقوال:

منها: أن العرض بمعناه الحقيقى غير أن المراد بالسماوات و الأرض و الجبال أهلها فعرضت على أهل السماء من الملائكة و بين لهم أن فى خيانتها الإثم العظيم فأبوها و خافوا حملها و عرض على الإنسان فلم يمتنع.

و منها: أنه بمعناه الحقيقى و ذلک أن الله لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهما و قال لها: إنى فرضت فريضة و خلقت جنة لمن أطاعنى فيها و نارا لمن عصانى فيها فقلن:

نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة و لا نبغى ثوابا و لا عقابا و لما خلق آدم عرض عليه ذلک فاحتمله و كان ظلوما لنفسه جهولا بوخامة عاقبته.

و منها: أن المراد بالعرض المعارضة و المقابلة، و محصل الكلام أنا قابلنا بهذه الأمانة السماوات و الأرض و الجبال فكانت هذه أرجح و أثقل منها.

و منها أن الكلام جار مجرى الفرض و التقدير و المعنى: أنا لو قدرنا أن السماوات و الأرض و الجبال فهما، و عرضنا عليها هذه الأمانة لأبين حملها و أشفقن منها لكن الإنسان تحملها.

و بالمراجعة إلى ما قدمناه يظهر ما فى كل من هذه الأقوال من جهات الضعف و الوهن فلا تغفل.